بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سورة لقمان

سورة لقمان، وهي سورة مكية، تبدأ بقوله تعالىٰ:

﴿الٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾﴾

هذه ﴿ءَايَٰتُ﴾ من ﴿ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾ وهو القرآن، الذي نزل من حكيم خبير.

وهو كتاب حكيم.. في كل ما جاء به من تشريعات، وما حواه من آداب.

وهو: ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ﴾ كل خير، فينالون الرحمة في الدنيا والآخرة.

والمحسنون هؤلاء، هم ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ وعلىٰ ذلك، فلا يتصف بالإحسان إلَّا مَن أقام الصلاة، وآتىٰ الزكاة، وأيقن بالآخرة، وأنه إذا وجدت هذه الصفات وجد الإحسان وكان الاهتداء بالقرآن، ونال أصحاب ذلك الرحمة من الله، في الدنيا وفي الآخرة.

ثم يقول ربنا: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى﴾ هداية وبصيرة ﴿مِن رَّبِّهِمْ﴾ في عقيدتهم وفي سلوكهم.

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ الفائزون برضوان الله، في الدنيا والآخرة.

ثم يبين ربنا أن الكفار ينشغلون عن هذا الخير كله، فيقول سبحانه:

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾﴾

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ صنف آخر غير هؤلاء، وهو ﴿مَن يَشْتَرِى﴾ ويختار، ويفضل ﴿لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ﴾ وهو ما يُلهي عن طاعة الله، ويصد عن ذكر الله، والاعتبار بآياته، ويُلهي عن القرآن كذلك، وذلك ﴿لِّيُضِلَّ﴾ نفسه، أو غيره ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وهو طريق الهداية، أو الإيمان، أو مزيد الطاعة ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ حقيقي، يستند إليه، أو يعتمد عليه، فيما يفعل، وقد يكون ممن يدَّعون العلم والمعرفة.

﴿و﴾ هو في ذات الوقت ﴿يَتَّخِذَهَا﴾ أي: الآيات، أو سبيل الله ﴿هُزُوًا﴾ يستهزئ بها، ويسخر منها. ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ أي: شديد مع الذلَّة والهوان.

﴿و﴾ هؤلاء ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ﴾ أي: على الواحد منهم ﴿ءَايَٰتُنَا﴾ الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا من القرآن، ﴿وَلَّىٰ﴾ أعرض عنها، ولم يستمع لها ﴿مُسْتَكْبِرًا﴾ متكبرًا مترفعًا عن الاستماع إليها ﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ بالمرة، مع أنه سمعها، أو ﴿كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾ مع أنه ليس في أذنيه شيء.

﴿فَبَشِّرْهُ﴾ أي: فأعلمه ﴿بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ ينتظره في يوم القيامة.

ولمَّا ذكر ربنا تبارك وتعالىٰ جزاء هؤلاء المستكبرين، ذكر بعده جزاء المحسنين.

فقال الحق تبارك وتعالىٰ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾﴾

يعني: أما ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بالله ورسله، وأحسنوا، وأقاموا الصلاة، وآتوا الزكاة، وأيقنوا بالآخرة، واستعدوا لها ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ التي ترضي الله تعالىٰ، وتصلح البلاد، وتسعد العباد: فـ ﴿لَهُمْ﴾ عند الله ﴿جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ﴾ يكونون ﴿خَٰلِدِينَ

﴿فِيهَا﴾ لا يخرجون ولا يموتون، وهذا ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ وكان وعد الله ﴿حَقًّا﴾ واقعًا لا محالة.

كيف لا ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالب ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ فيما قضىٰ وقدر.

وهو سبحانه الذي من آيات قدرته أنه:

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾﴾

أولًا: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ ورفعها ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ﴾ أي: حوامل لها ﴿تَرَوْنَهَا﴾ أصلًا لأنه لا حوامل، أو أن لها حوامل ولكنكم لا ترونها، لأنها قدرة الله تعالىٰ، وهذا من مظاهر عزته سبحانه وحكمته.

ثانيًا: ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ﴾ أي: جبالًا ثابتة، لـ ﴿أَن﴾ لا ﴿تَمِيدَ﴾ تضطرب ﴿بِكُمْ﴾ وبذلك تتمكنون من الحياة عليها، وهذا من مظاهر عزته عز وجل وحكمته أيضًا.

ثالثًا: ﴿وَبَثَّ﴾ أي: خلق ونشر ﴿فِيهَا﴾ وهي الأرض ﴿مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾ أشكالًا، وأصنافًا، لمصالحكم، ومنافعكم، وهذا ـ ثالثًا ـ من مظاهر عزته وحكمته.

رابعًا: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ السحاب ﴿مَآءً﴾ بقدر، تشربون منه، وتنتفعون به. وهذا ـ رابعًا ـ من مظاهر عزته، وحكمته.

خامسًا: ﴿فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا﴾ أي: في الأرض بهذا الماء ﴿مِن كُلِّ زَوْجٍ﴾ من النبات ﴿كَرِيمٍ﴾ حسن المنظر والطعم والرائحة، وهذا ـ كذلك ـ من مظاهر عزته تعالىٰ وحكمته.

أيها الناس..

﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾﴾

أي: ﴿هَٰذَا﴾ الذي ذكر هو من بعض ﴿خَلْقُ ٱللَّهِ﴾ العزيز الحكيم.

﴿فَأَرُونِي﴾ إذًا: ﴿مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ﴾ تعبدونهم ﴿مِن دُونِهِۦ﴾ سبحانه..؟

إن أحدًا من الكافرين لا يستطيع ذلك؛ لأنه ليس أحد ممن يعبدونهم يخلق شيئًا أبدًا!! ﴿بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ الكافرون ﴿فِى ضَلَٰلٍ﴾ جهل وعمى وضياع ﴿مُّبِينٍ﴾ واضح، حيث إنهم لا يدركون: عزة الله، وحكمته سبحانه وتعالىٰ في كتابه، ولا فيما خلق، ولا فيما فعل؛ ومن ثَمَّ يكفرون ويعاندون.

هذا، وبعد أن أصبح واضحًا أن الحكمة في القرآن الكريم. يأتي نموذج عملي للحكمة في قصة لقمان، حيث نتعرف من خلالها علىٰ أدب تلقي الحكمة من الله.

إذ يقول الله تعالىٰ:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾﴾

أي: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا﴾ من لدنا ﴿لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾ وهي: الإصابة في القول والفعل، والفهم، والعلم، وحسن التدبير.

وقلنا له: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ﴾ علىٰ أن آتيناك ذلك، حيث إنه ﴿مَن يَشْكُرْ﴾ الله ﴿فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ﴾ ونَفْعُ شكره عائد إليه، كما أن ﴿مَن كَفَرَ﴾ النعمة، ولم يشكر المولىٰ عليها: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ﴾ عن هذا الشكر، لا يحتاج إليه؛ إذ هو ﴿حَمِيدٌ﴾ محمود في نفسه، شَكَرَه وحَمَدَهُ أحد، أو لم يشكره ويحمده أحد.

وقد دل ذلك علىٰ أن الله كمَّل لقمان بالحكمة، وأن كل نعمة ينبغي أن يكون عليها شكر لصاحبها؛ أدبًا في تلقيها.

وبعد أن أصبح لقمان متحليًا بالحكمة في نفسه، بدأ يُحَلِّي بها غيره، وترينا الآيات التالية كيفية نشر الحكمة وتعليمها، إذ يقول الله تعالىٰ:

﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾

وهذه أول الحكم، وأشرف الوصايا، التي بدأ بها لقمان في وعظه لابنه، وغيره..

﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ﴾ إذ كل وصية مع مَن يشرك بالله، ويستمر على شركه لا فائدة منها، ولا رجاء فيها، كما أن التخلية من الشرك مقدمة على التحلية بآية أدب أو وصية.

حقًّا: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾ أي: إن الشركَ قبيحٌ، وظلم صارخ؛ لأنه وضعٌ للشيء في غير موضعه.

الوصية الثانية: ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ وَهۡنًا عَلَىٰ وَهۡنٖ وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيۡنِ أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ إِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ ١٤ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗاۖ وَٱتَّبِعۡ سَبِيلَ مَنۡ أَنَابَ إِلَيَّۚ ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ١٥﴾

وهذه هي **الوصية بالوالدين**، وبخاصة الأم منهما، حيث إن الإنسان ﴿حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ وَهۡنًا عَلَىٰ وَهۡنٖ﴾ **أي**: ضعفًا على ضعف، كلما مرت أيام الحمل، أيضًا ﴿وَفِصَٰلُهُۥ﴾ عن أمه: **أي**: رضاعه، يكون ﴿فِي عَامَيۡنِ﴾ شاقَّين عليها كذلك.

والوصية هنا هي: الشكر لهما، والإحسان إليهما ﴿أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ إِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ﴾ فأجزيك على هذا الشكر الواجب عليك، خيرًا.

﴿و﴾ بالرغم من هذه الوصية بهما ﴿إِن جَٰهَدَاكَ﴾ أي: أمراك، أو ألزماك ﴿عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ﴾ في ذلك.

﴿و﴾ مع ذلك ﴿صَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا﴾ بجسمك ﴿مَعۡرُوفٗاۖ﴾ **أي**: بالمعروف؛ فإن حقهما على جسمك فقط ؛ إذ هما المربيان له.

﴿وَٱتَّبِعۡ سَبِيلَ مَنۡ أَنَابَ إِلَيَّۚ﴾ وأطاعني، بعقلك وفكرك وعقيدتك، فأنا المربي الحقيقي لكل ذلك - وغيره - منك.

﴿ثُمَّ إِلَيَّ﴾ في النهاية ﴿مَرۡجِعُكُمۡ﴾ جميعًا أنت وهما ﴿فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ وأجازي كل فريق منكم بعمله.

الوصية الثالثة: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾﴾

وهذه الوصية: في تربية النفس على مراقبة الله تعالى قال له: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ﴾ **أي:** الخطيئة أو المظلمة مهما صغرت، حتى ﴿إِن تَكُ﴾ في صغرها ﴿مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾، ومع هذا الصغر ﴿فَتَكُن﴾ خفية ﴿فِي صَخْرَةٍ﴾ أو بعيدة ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أو مدفونة ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ فهي مع هذا كله ﴿يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ﴾ ويحضرها يوم القيامة؛ ليحاسب عليها صاحبها.

حيث: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه ﴿لَطِيفٌ﴾ يعلم مكانها، وإن خفيت ﴿خَبِيرٌ﴾ بخطورتها.

ثم يقول تعالى على لسان لقمان، وهو يعظ ابنه:

﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾﴾

وفي هذه الآية الكريمة نجد: **الوصية الرابعة وهي:** ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أتمها، وداوم عليها، بحدودها وأوقاتها.

الوصية الخامسة وهي: ﴿وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ وهو ما لا تنكره الفطرة السليمة، ويقره الشرع الحنيف ﴿وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ وهو ما تنكره الفطرة السليمة، ولا يقره الشرع الحنيف.

الوصية السادسة وهي: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ﴾ من أذًى مادي أو معنوي في سبيل التزامك بدينك، والدعوة إليه، والأمر بالمعروف منه، والنهي عن المنكر الذي لا يرتضيه. ثم يقول سبحانه:

﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾﴾

وفي هذه الآية كذلك نجد: **الوصية السابعة وهي:** ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ **أي:** لا تتكبر عليهم، ولا تحتقرهم، بل تواضع لهم وأقبل عليهم؛ حتى يألفونك، ويحبونك.

الوصية الثامنة وهي: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ **أي:** متكبرًا، مختالًا، جبارًا؛ حتىٰ لا يبغضك الله، حيث ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ﴾ معجب بنفسه ﴿فَخُورٍ﴾ علىٰ غيره، بما أعطاه الله له.

ثم يكمل تعالىٰ هذه الوصايا علىٰ لسان لقمان بقوله:

﴿وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾﴾

ونجد في هذه الآية كذلك: **الوصية التاسعة وهي:** ﴿وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ﴾ **أي:** كن متزنًا، معتدلًا في مشيك، لا متسرعًا، ولا متباطئًا ويقاس عليه طلب الاعتدال في كل الأحوال.

الوصية العاشرة وهي: ﴿وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ﴾ **أي:** اخفضه، ولا تبالغ فيه، ولا ترفعه فيما لا فائدة منه؛ لأن الصوت العالي فيه شبه بصوت الحمير و ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ﴾ أقبحها ﴿لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ فإنها كأصوات أهل النار، أوَّلها زفير وآخرها شهيق، علىٰ خلاف جميع الأصوات.

وبذلك انتهت الوصايا العشرة، التي هي من عيون الحكمة.

ثم عاد الكلام إلىٰ ما كان عليه قبل قصة لقمان، من خطاب المشركين وتوبيخهم في إصرارهم علىٰ الكفر، حيث يقول الله تعالىٰ:

﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾﴾

يعني: ﴿أَ﴾ عجبتم أيها المشركون، و﴿لَمْ تَرَوْا۟﴾ وتعلموا ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾ الواحد عز وجل ﴿سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ بقدرته؛ لمنفعتكم.

﴿و﴾ كذلك ﴿أَسْبَغَ﴾ وأتم ﴿عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ﴾ الكثيرة، سواء كانت ﴿ظَٰهِرَةً﴾ تشاهد وتحس ﴿وَبَاطِنَةً﴾ لا تعلم إلَّا بدليل يدل عليها.

﴿و﴾ مع ذلك نجد ﴿مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ فريقًا، هو ﴿مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ﴾ ووحدانيته، وقدرته، وآياته ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ مستفاد من دليل ﴿وَلَا هُدًى﴾ من رسول ﴿وَلَا كِتَٰبٍ﴾ من رب العالمين ﴿مُّنِيرٍ﴾ أي: واضح بيِّن.

﴿و﴾ أكثر من هذا، ﴿إِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ من القرآن على رسوله ﴿قَالُوا۟﴾ لا ﴿بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ حتى ولو كان باطلًا، وهو بالفعل باطل.

عجيب أمرهم.. ﴿أَ﴾ يتبعونهم؟؟ ﴿وَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾؟ إنه أمر في غاية العجب، ودليل على قلة العقل.

إذا كان حديثنا عن الذين يجادلون ﴿فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾ قد انتهى، فإن الحديث هنا يبدأ بمقابلهم، وهم الذين يسلمون وجوههم إلى الله وهم محسنون، حيث يقول سبحانه:

﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾﴾

الآية الكريمة تبين شروط صحة الأعمال من العبد، وقبولها عند الله سبحانه، وهما.. شرطان:

الأول: الإخلاص ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ ينقاد لأمره، ويقبل على طاعته، ويخلص له وحده.

الثاني: موافقة الشرع ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ في عمله، يتبع ما أمر به، ويجتنب ما نهى عنه.

مَن يتصف عمله بهذين الأمرين: ﴿فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ التي توصله إلى مرضاة الله، ونعيمه.

﴿وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ فهي راجعة إليه، وسيجازي عليها.

ولمَّا بيّن ربنا حال المسلم، عاد إلى بيان حال الكافر، فقال تعالى:

﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾﴾

يعني: ﴿وَمَن﴾ لم يسلم وجهه إلىٰ الله، بل ﴿كَفَرَ﴾ وعاند، فهذا الصنف من الناس ﴿فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ﴾ ولا تتألم بسببه، واعلم ما يلي:

أولًا: ﴿إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ في يوم الحساب ﴿فَنُنَبِّئُهُم﴾ ونجازيهم ﴿بِمَا عَمِلُوا۟﴾.

ثانيًا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ ولا يخفىٰ عليه سرهم وعلانيتهم، وهل سيؤمنون أو سيموتون علىٰ كفرهم..؟

ثالثًا: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا﴾ في الدنيا ﴿ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ﴾ في يوم القيامة ﴿إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾.

ومن عجيب أمر هؤلاء!! أنه..

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾﴾

أي: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾ هؤلاء الكافرين عن ﴿مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾؟ ﴿لَيَقُولُنَّ﴾ لك: إنه ﴿ٱللَّهُ ۚ﴾.

إذن ﴿قُلِ﴾ **أولًا:** ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ علىٰ ظهور الحجة عليهم والدليل علىٰ ألسنتهم علىٰ توحيده سبحانه وتعالىٰ.

﴿بَلْ﴾ انتبه إلىٰ أن ﴿أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وضوح هذه الحجة عليهم والإلزام لهم، حقًّا ﴿لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾ خلقًا وملكًا وتصرفًا.

اعترفوا بذلك، أو لم يعترفوا.. حيث ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ المستحق للحمد، حتىٰ ولو لم يحمده أحد.

وقل ثانيًا: لا تظنوا أن ما في السموات والأرض من ملكوت الله هذا له نهاية..

﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾

أي: أن ملك الله لا يحصره الحصر، ولا نهاية له.

﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَـٰمٌ﴾ ولو صُنِعَ كل الشجر على وجه الأرض أقلامًا للكتابة، وكانت مياه البحار حبرًا ﴿وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾ بهذا الحبر، وذلك: لكتابة معلومات الله الدالة على كائناته غير المتناهية.

لو حدث ذلك ﴿مَّا نَفِدَتْ كَلِمَـٰتُ ٱللَّهِ﴾ كما في قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَـٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَـٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ [الكهف: ١٠٩].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ لا يعجزه شيء، ﴿حَكِيمٌ﴾ في كل شيء، سبحانه وتعالى.

ثم قل لهم ثالثًا:

﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾﴾

يعني: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ﴾ جميعًا، وكل البشر ﴿وَلَا بَعْثُكُمْ﴾ يوم القيامة جميعًا، وكل البشر، في قدرة الله تعالى ﴿إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ لأنه لا يصعب عليه شيء، إذْ يقول سبحانه فقط للشيء: كن فيكون، وعلى ذلك فآمنوا، وأسلموا أمركم لله، وانقادوا لشرعه، واتبعوا رسوله، ولا تعاندوا.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ﴾ لأقوالكم ﴿بَصِيرٌ﴾ بأفعالكم.

قرأنا فيما سبق قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَـٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ من نفس سورة لقمان [٢٠].. ولأن ذلك تسخير لما في السمٰوات وما في الأرض، وهو نعمة، وكان بيان ذلك على سبيل الإجمال.. فقد بدأ المولى عز وجل يفصل هنا في بيان هذا التسخير، حيث يقول جل وعلا:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَـٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾﴾

وهذا بعض مما سخر الله للإنسان من ملكوت السمٰوات.

حيث: ﴿يُولِجُ﴾ يدخل بقدرته ﴿ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾ حسب نظام في غاية الدقة والانضباط ؛ بما ينفعكم في أمور حياتكم، كما أنه سبحانه ﴿سَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ تسخيرًا مفيدًا نافعًا و ﴿كُلٌّ﴾ منهما ﴿يَجْرِىٓ﴾ بقدرة الله، في مسار محدد، لا يتعداه ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ وهو يوم القيامة.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ﴾ الذي سخر كل هذا: ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أيها البشر ﴿خَبِيرٌ﴾ لا يخفىٰ عليه من أمركم شيء.

﴿ذَٰلِكَ﴾ التسخير للأجرام، والإبداع في الألوان: ﴿بِـ﴾ سبب ﴿أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ الثابت الواحد القادر ﴿و﴾ هو دليل علىٰ أمرين:

الأول: ﴿أَنَّ مَا يَدْعُونَ﴾ ويعبدون ﴿مِن دُونِهِ﴾ هو ﴿ٱلْبَٰطِلُ﴾.

الثاني: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ﴾ عز وجل، الذي يفعل كل ذلك ﴿هُوَ﴾ وحده ﴿ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ أي: وأنه تعالى هو العليُّ في صفاته، الكبير في ذاته.

ويقول المولىٰ عز وجل أيضًا:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾﴾

وهذا بعض مما سخر الله ـ كذلك ـ للإنسان، ولكن في الأرض، حيث جعل الله ﴿ٱلْفُلْكَ﴾ أي: السفن ﴿تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ﴾ علىٰ الإنسان ﴿لِيُرِيَكُم﴾ أيها الناس آية ﴿مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ الدالة علىٰ توحيده وقدرته.

حقًّا ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ﴾ ودلائل ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾ علىٰ البلاء ﴿شَكُورٍ﴾ علىٰ النعماء.

﴿و﴾ العجيب !! أن هؤلاء ﴿إِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ﴾ من الماء في البحر، أو من المصائب والنوازل والكوارث في الحياة ﴿دَعَوُا۟ ٱللَّهَ﴾ لينقذهم مما هم فيه، ويكونون ساعة هذا الدعاء والسؤال والاستغاثة ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ لا يرون غيره

مُخلِّصاً ولا منقذًا.

﴿فَلَمَّا﴾ استجاب دعاءهم، و ﴿نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ﴾ أي: بر الأمان من الغرق في الماء، أو من الغرق في الهموم والمصائب ﴿فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ أي: مقتصد في إيمانه، بخيل به، باق علىٰ كفره، جاحد نعمة الله عليه، وليس هذا بغريب عليه، فقد جحد بالقرآن قبلًا.

﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ﴾ وينكر لنعمتنا ﴿إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ﴾ غدار ﴿كَفُورٍ﴾.

هذا، ولمَّا وضحت السورة الدلائل علىٰ وحدانية الله وقدرته وعظت بتقوىٰ الله وخشيته، يقول الله تعالىٰ:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾﴾

نعم، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ جميعًا: ﴿ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ بالخوف منه، والعمل بكتابه، والإلتزام بشرعه، واتباع رسوله.

﴿وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا﴾ وهو يوم القيامة، حيث ﴿لَّا يَجْزِى﴾ فيه ويدفع ﴿وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ﴾ شيئًا، كذلك ﴿وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا﴾ و﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ بالبعث والحساب والجزاء: ﴿حَقٌّ﴾ لا يتخلف.

وما دام الأمر كذلك، ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ بزينتها وزخرفها عن الآخرة والاستعداد لها.

﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ﴾ في كرمه وعفوه ﴿ٱلْغَرُورُ﴾ وهو الشيطان أو الدنيا.

وفي نهاية السورة يبين الله تعالىٰ أن مفاتيح الغيب بيده وحده سبحانه، إذ يقول جل جلاله:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾﴾

يعني: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ﴾ وحده العلم والقدرة علىٰ هذه الأشياء:

الأول: ﴿عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ أي: وقت القيامة فلا يعلمه إلَّا هو.

الثاني: ﴿وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾ أي: المطر، فلا يقدر علىٰ ذلك إلَّا هو.

الثالث: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْأَرْحَامِ﴾ سعيد أو شقي، غني أو فقير.. إلخ، فلا يعلم ذلك إلَّا هو.

الرابع: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ من الأرزاق أو الأعمال، فلا يعلم ذلك إلَّا هو.

الخامس: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ﴾ أو وقت ﴿تَمُوتُ﴾، ولكن الذي يدري ويعلم ذلك وحده: هو الله سبحانه وتعالىٰ، وهذه هي مفاتيح الغيب الخمسة لا يعملها إلَّا الله، حيث ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ أي: مبالغ في العلم، يعلم كل الأمور، خبير بظواهر الأشياء وبواطنها.

* * *